4 نحو الفجر

كان غايلز ماكوي Giles McCoy، أحد جنود مشاة البحرية، يكره تأدية مهمة الخفارة حتى وإن كان يستطيع الجلوس. والآن في صبيحة 16 تموز / يوليو، وقرابة الوقت الذي انطلقت فيه الغواصة اليابانية 58 - I، للاصطياد، جلس فوق الصندوق الخشبي الضخم الذي كان قد تم رفعه على متن الطراد إندياناپولس وتم لحامه على سطح الحظيرة قبيل الفجر. وكان يرتدي بزته الكاكي المنشّاة بأمر من آمره الحريص على الشكليات وكان يتصبب عرقاً في حر الصيف وهو يعبث بمسدسه عيار 45 وكانت الحظيرة أشبه بفرن رغم النسيم الذي كان ينساب عبر الباب المفتوح.

كان ماكوي مستاء حتى قبل أن يبدأ مهمة الخفارة، إذ لم تسنح له الفرصة ليودع والدته وشقيقته وصديقته قبل إبحار الطراد، بالرغم من أنهن أتين خصيصاً من بلدته سانت لويس St. Louis لرؤيته. وعندما اشتكى إلى الضابط التنفيذي على السفينة الآمر جوزيف أ. فلين Joseph A. Flynn، أجابه الآمر بكل بساطة: «وماذا عني؟ تنتظرني زوجتي على العشاء في المنزل هذه الليلة».

لم يهدأ ماكوي، إذ لا يعامل جندي من مشاة البحرية بهذه الطريقة سيما وأنه جندي يتمتع بسجل معارك جيد نوعاً ما. فقد تطوع في سلاح مشاة البحرية وهو في سن الثامنة عشرة وكان يشعر بأنه مؤهل على نحو خاص، سيما أن بنيته النحيلة وذقنه القوية تضفيان على وجهه النحيل المستطيل تعبيراً عن إرادة حديدية توحي بالصرامة التي يتوقعها المرء من مشاة البحرية. وكان نجماً رياضياً في المدرسة الثانوية يلعب مع فريق كرة القاعدة (البيسبول) ويحلم في التقاعد مع فريق سانت لويس براونز St. Louis Browns. وكان يحب القنص وبارعاً في استخدام البندقية.

خدم في أول الأمر مع وحدة من مشاة البحرية اقتحمت شواطىء بالاو Palau في جزر الكارولين Carolines الشرقية. وفيما بعد، وعلى متن الطراد إنديانابولس، أطلق المدافع على طوكيو لمساندة قوة خاصة لإحدى حاملات الطائرات، وفي وقت لاحق، وفي معارك سبقت الإنزال، ساعد في قصف أيوجيما وفي إسقاط ست طائرات حول أوكيناوا ـ قبل أن تأتي الصدمة.

لن ينسى ماكوي أبداً اللحظة التي نظر فيها إلى الأعلى وشاهد نقطة داكنة تخترق الغيوم فوق أوكيناوا. أخذت النقطة تكبر وتكبر وإذ بها طائرة كاميكازي تتجه نحوه مباشرة! وصدر عن مكبر الصوت صوت مذعور يأمر بتطبيق الحالة رقم واحد في بطارية المدافع المضادة للطائرات. ساعد ماكوي في تصويب مدفع عيار خمس بوصات نحو الهدف ولكن بعد فوات الأوان، إذ انقضَّت الطائرة مثل

تنّين سماوي وهي تدنو أكثر فأكثر. صاح أحدهم قائلاً إن الطيار سوف يضرب وانبطح ماكوي على بطنه في الوقت الذي ارتطمت فيه الطائرة بسطح السفينة الرئيسي على مسافة نحو 20 قدماً منه محدثة دوياً هائلاً. وكان الطيار قبل ثوان من الارتطام قد أطلق قنبلة اخترقت السفينة وانفجرت تحتها فقتلت تسعة رجال في قاعة الطعام وجرحت الكثير. رغم استقرار قطعة من الطائرة في صندوق من القذائف كان إلى جانب ماكوي، فقد نجا نوعاً ما دون أن يلحق به أي أذى.

ونظراً لكل هذه الأهوال التي صادفها، فكر ماكوي بأنه لا ينبغي ألاَّ يعامل مثل هذه المعاملة غير اللائقة. وتساءل عما يمكن أن يحويه الصندوق الخشبي الذي كان من الأهمية لدرجة أنه لم يستطع حتى أن يودع والدته وشقيقته. يا لها من حرب غير عادلة.

كان ماكوي واحداً من مجموعة 39 جندياً من مشاة البحرية يحرسون على مدار الساعة العبوتين الغامضتين المتجهتين إلى جزيرة تينيان. كانت الحبال تطوق الصندوق الخشبي لمنع الاقتراب منه، كما كان يحظر على الجميع الدخول إلى الحظيرة باستثناء الكابتن مكفاي والآمر فلين وضابطي المدفعية اللذين صعدا إلى السفينة مع الحمولة.

قلة من أفراد الطاقم صدقوا حقاً أن الضابطين كانا من سلاح المدفعية لأنهما لا يعرفان سوى النزر القليل جداً عن المدفعية. في واقع الأمر، كان أحدهما مهندساً وهو الرائد روبرت ر. فيرمان Robert R. Furman، بينما كان الآخر أخصائياً بالأشعة وهو النقيب

جيمس ف. نولان James F. Nolan، وعندما سألهما دونالد بلوم عن نوع المدافع التي يطلقونها، حاول نولان أن يوضح عيار المدافع بأن ضم يديه على شكل كوب في حين تحدث فيرمان عن مدافع عيار 75 مم التي تعلم كيفية استخدامها في مدفعية الأيام الخوالي التي كانت تجرها الخيول. أي نوع من الأجهزة الارتدادية كانا يستعملان؟ حسناً، من الصعب القول. . . آخرون تساءلوا عن سبب كثرة اختفاء نولان أثناء عرض شريط سينمائي وعودته بعد بضع دقائق. قال نولان إنه مصاب بدوار البحر، ولكنه كان في حقيقة الأمر يذهب إلى مقصورة القبطان وإلى الحجرة الخاصة التي كان يتشاطرها مع فيرمان «حيث كان اليورانيوم» للتأكد من عدم وجود خطر إشعاعي.

كان الجنرال غروفز Groves قد أمر الرجلين بحراسة مكونات القنبلة الذرية إلى أن ترسو السفينة في تينيان. وهكذا تنكرا بصفة ضابطي مدفعية. كان فيرمان قد نظم ALSOS، وهي مجموعة عسكرية وعلمية سرية كانت قد بحثت عن علماء ألمان ووثائق ألمانية ذات صلة بالقنبلة الذرية، وانهمك نولان في بحث إشعاعي في لوس آلاموس Los Alamos حيث تم صنع القنبلة الذرية الأمريكية. وقد رافقا الشاحنة التي كانت تقل الحمولة من لوس آلاموس إلى البوكيرك Albuquerque في قافلة تعج برجال الأمن، ومن ثم رافقا الحمولة جواً إلى مطار هاملتون Hamilton قرب سان فرانسيسكو، وأخيراً رافقا الشحنة في قافلة أخرى من الشاحنات إلى نقطة هنتر Hunter's Point.

أصبح هذان الضابطان جزءاً من لغز حيّر طاقم السفينة إنديانابولس. من هما وما هي علاقتهما بالصندوق الخشبي الضخم وبالعبوتين؟ لماذا ربط قارب نجاة بحاجز إنشائي قرب مقصورتهما؟ لماذا هرعا لتفقد العبوتين حين اندلع حريقان طفيفان على السفينة؟

يبدو أن الكابتن مكڤاي نفسه كان ينضم إلى اللعبة إذ لم يلح على قاعة المحركات زيادة سرعة المحركات. ألمح إلى الضابطين بأن الشحنة السرية خاصة بالحرب الجرثومية. ولكن التزم الضابطان الصمت المطبق. ومع أن مكڤاي ادعى في وقت لاحق أنه كان على علم بحقيقة الأمر، ربما لم يكن متأكداً من معرفة الضابطين بالحقيقة وإنما كان يريد اختبار معرفتهما. وألمح بالشيء نفسه إلى الدكتور هينز ولعله كان يسعى إلى جعله يبوح بالسر. وعلى أية حال، كان هينز طبيباً على دراية بالإشعاع ولربما خمن ماهية المحتويات. وبالطبع، ربما كان مكڤاي بكل بساطة مشوشاً وفضولياً كبقية الطاقم.

في حين كان القبطان فخوراً بكون جزءاً من مهمة يمكن أن تنهي الحرب سريعاً، فقد كانت له دواع أخرى للفخر أيضاً. فخلال بضعة أيام على متن السفينة، أجرى تدريبات مختلفة على الطوارىء وتمارين متتالية. وعلى الرغم من العدد الكبير من الركاب العسكريين الذين كانوا يتجولون في السفينة ويقفون في طريق الطاقم، فقد تحسنت الكفاءة القتالية لدى رجاله لا سيما العدد الكبير من المجندين الجدد. وحالما يتلقون دورة لتحديث معلوماتهم في غوام على ما يبدو ـ لن تعجز سفينته عن التعامل مع أية غواصة عدوة.

بينما كانت السفينة تدور حول دياموند هد Diamond Head في هاواي، علم مكڤاي أنها حطمت السرعة القياسية من سان فرانسيسكو، إذ بلغ وسطي سرعتها زهاء 29,5 عقدة وأكملت الرحلة التي تتجاوز ألفي ميل بما يعادل 74,5 ساعة. ودخلت السفينة ميناء بيرل هاربر الذي كان قد أبعدت عنه كل سفينة كبيرة أخرى، ورست للتزوّد بالوقود والإمدادات وسط مشاعر الابتهاج بنبأ تحطيم السرعة القياسية وبفرصة الاحتفال بدوامة من حفيف التنانير المصنوعة من الأعشاب التي ترتديها فتيات الجزيرة.

ولكن باستثناء الركاب العسكريين، لم يكن أحد يستطيع مغادرة السفينة بدون أوامر. هكذا قال مكڤاي الذي كان يخشى أن يكون بعض الرجال قد اكتشف معلومات كثيرة عن محتويات الشحنة السرية ولم يسمح حتى للمرضى أو المصابين بالنزول إلى البر. احتج الدكتور هينز بقوة لدى الآمر فلين وجادل بأنه ليس من سبب يدعو لإبقاء مريض مثل روبرت فرانك ريد Robert Frank Redd على متن السفينة وكان مصاباً بكسور في عظام قدمه من جراء سقوط علبة ذخيرة عليها. وكان ريد نفسه، وهو من رجال مشاة البحرية الجيدين، يريد البقاء على متن السفينة ولكن قدمه كانت داخل جبيرة ويصعب عليه السير. وكان الجواب: «للأسف. إنها أوامر القبطان».

كان الملازمان بلوم وبروفي من بين أفراد الطاقم الآخرين الذين خاب أملهم إذ كانا يحلمان طيلة الرحلة عبر المحيط بقضاء ما لا يقل عن ليلة واحدة لا تنسى. وكان بلوم ثائراً على نحو خاص لأنها كانت

المرة الأولى التي يخرج فيها إلى البحر ولم يلحظ أي شيء غير عادي بشأن المهمة إذ لم يكن لديه شيء يعترض عليه. حسناً، توجد بضاعة تخضع لحراسة مشددة لعلها أجزاء مدافع. حسناً كانت سفينته هي الوحيدة في الميناء. وهل يوجد عادة مزيد من السفن؟ حسناً لم يكن هناك طابور من السفن ينتظر التزود بالوقود. ربما يعود هذا لكفاءة البحرية ليس إلاّ. وحتى ضابطا المدفعية ـ يوجد في الجيش الكثير من الرجال غير المؤهلين. ولم يكن بلوم متأكداً ممّا إذا كان منع طاقم من قضاء بضع ساعات على اليابسة في مكان مثل هاواي أمراً اعتيادياً. حتى وإن كان الأمر كذلك، يصعب عليه أن يتخيل موقفاً متبلّداً تُجاه رجال يودون ببساطة مجابهة الموت والابتسامة تعلو شفاههم.

كان أوثا آلتون هافنز بحاراً آخر يريد النزول من السفينة فقد وعده الضابط التثقيفي بإمكانية نزوله في بيرل هاربر والعودة إلى الولايات المتحدة، ولكن لم تصل أوامر نقله بعد. طلب إليه الضابط التحلي بالصبر مطمئناً إياه بأنه سينزل من السفينة في مكان ما في المحيط الهادىء.

لم يكن كل فرد من أفراد الطاقم تواقاً للنزول من السفينة. كان الملازم ردمين مرتاحاً وهو يرى رئيسه في قاعة المحركات يقفز إلى البر ليتولى عملاً آخر. وبهذا أصبح ردمين رئيس المهندسين على متن السفينة وهو هدف طالما تمناه. وبعث القبطان مكڤاي برسالة إلى مكتب الذاتية طالباً ترقيته إلى رائد بحري. لا ضرر، حتى وإن كان سيحل محل ضابط كامل الرتبة. فقد قام ببداية ممتازة عندما ساعد في

تسجيل سرعة قياسية. ورغم كل هذا السرور العارم، شعر ردمين بشيء من الأسف على رئيسه السابق. مهمة على الشاطىء! إنها مذلة نوعاً ما. ورغم ذلك لم يستطع أن يكون في غاية الأسف وهو يتذكر المثل القائل: «مصائب قوم عند قوم فوائد».

وبعد مكوث زهاء ست ساعات في الميناء، رفع الطراد المرساة واتجه نحو تينيان. وبما أن السفينة كانت متقدمة عن موعدها المقرر، أصدر مكڤاي أوامره إلى ردمين بتخفيض السرعة إلى حوالى 24 عقدة ويفترض أن هذه السرعة لا زالت كبيرة بما فيه الكفاية لخداع أية غواصة وحرمانها مما يمكن أن تكون أهم ضربة طوربيد سجلت حتى الآن.

كان مكڤاي يدرك تمام الإدراك ما كان يلعبه الطراد إنديانابولس تحت إمرته من دور خاص في التاريخ. لاحظ الضباط أن مكڤاي كان متوتراً بقدر ما كان مبتهجاً. وكان يقف ساعات على سطح السفينة على أعلى البرج رقم /2/ وكأنه يبحث عن خطر مختبىء يتربص خلف كل موجة. إذا لم ينجز هذه المهمة سيلومه التاريخ لإطالته أمد الحرب وتسببه في عدد لا يحصى من الخسائر البشرية بلا لزوم. وبدا أنه يعد اللحظات التي سيصل فيها الطراد إلى تينيان، ويقيس بعقله المسافة كلما قصرت تدريجياً. وفي الليل، كان يلقي نظرة على الخرائط والأقراص المدرجة ويحملق في الفراغ الأسود وكأنه مسلوب اللب برؤيةٍ ما مقصودة لعينيه فقط. ولا شك أنها كانت رؤية وردية، إذ يبدو أن الشحنة الثمينة التي كان يحملها تحمل المفتاح لإحلال

السلام بسرعة ـ وبالتالي تتيح له عودة سريعة إلى زوجته لويز.

وفي صباح 26 تموز / يوليو الدافىء والصافي، وقف مكفاي ثانية على سطح الطراد، ولكن لم تظهر عليه هذه المرة علامات التوتر أو الاستغراق في التفكير. كانت تعلو شفتيه ابتسامة نضرة اعتاد رجاله عليها في السابق ولكنهم نادراً ما شاهدوها في مرحلة الخمسة آلاف ميل من سان فرانسيسكو. ومع اقتراب السفينة في تينيان، حملق بشعور من الرضا في الجزيرة المكسوة بالنخيل ومهابط الطائرات العملاقة طراز B - 29. ها هي السفينة قد بلغت وجهتها المقصودة.

دخلت السفينة ببطء في المرفأ الصغير وألقت مرساتها بينما كان أفراد الطاقم، ومن بينهم دونالد بلوم، يتزاحمون حول الحواجز الحديدية على السطح الرئيسي، وكان بلوم لا يزال غير متأكد مما إذا كانت الأمور اعتيادية أم لا. وقد رحبت بالسفينة مجموعة من الزوارق الصغيرة التي كانت تقل جنرالات وأميرالات، وضباط ذوي رتب عالية، إضافة إلى مجموعات من مشاة البحرية المدججين بالسلاح. هل كان هذا النوع من الترحيب اعتيادياً في الجزر؟

صعد كبار الضباط على متن الطراد وتفحصوا العبوتين والصندوق الخشبي الذي كان بمثابة مقعد لغايلز ماكوي. وعندما أنزل البحارة الحاويتين في زورقين منفصلين يقودهما مشاة البحرية، قفز «ضابطا المدفعية» فيرمان ونولان إلى الزورق الذي كان يقل الحاويتين وانطلق الزورقان بسرعة إلى الشاطىء، يتبعهما كبار الضباط.

عندها دوى صوت القبطان مكفاي من مكبر الصوت قائلاً: «لقد قمتم بعمل عظيم. أعتقد أن المواد التي جلبتموها سوف تقصر أمد الحرب».

انطلقت الهتافات مدوية في الهواء المداري. إذن حان الوقت للاحتفال. وتصور الرجال أنه لا بد من وجود أماكن تسلية في هذه الجزيرة. لكن تعذر على الرجال التأكد من ذلك إذ رغم أن الشحنة السرية لم تعد موجودة على متن السفينة، فقد منعوا من مغادرة السفينة التي سوف تكتفي بالتزود بالوقود قبل أن ترفع مرساتها. ما هي وجهتها؟ لا أحد غير القادة يعرفون ذلك ولكن راجت شائعة بأنها سوف تشارك في غزو فورموزا.

شعر بلوم بالانهيار إذ ها هو عرضة للخداع مرة أخرى. وكان يوفر الشراب الذي في حوزته لليلة أنس ونعيم، ولكنها ليلة لم تتحقق أبداً كما يبدو، خاصة أن معركة مميتة على وشك الوقوع.

عرف مكفاي قبيل الإبحار الطريق التي سوف يسلكها إلى المعركة. فقد صدرت إليه الأوامر من الأميرال تشستر دبليو نيمتز Chester W. Nimitz، القائد العام لأسطول المحيط الهادىء، الذي توجد قاعدته في بيرل هاربر، بالإبحار إلى غوام حيث كان مقر القيادة المتقدم للأميرال، ومن ثم الإبحار من غوام إلى جزيرة لايته Leyte في الفلبين حيث سوف يتدرب رجاله لمدة عشرة أيام مع مجموعة 95,7 التابعة للعميد البحري لندي د. ماكورمك .Lynde D McCormick ومن ثم ينضم الرجال إلى القوة الخاصة 95 التابعة

لنائب الأميرال اللواء البحري جيسي ب. أولدندورف Jesse B. Oldendorf التي ستلعب دوراً رئيساً في الغزو المقرّر لليابان. وقد أرسلت نسختان من الأوامر إلى كل من ماكورمك وأولدندورف. وللتأكّد من تعقب جميع الأشخاص الآخرين المعنيين بالرحلة مسار السفينة، أرسلت نسخ من الأوامر أيضاً إلى اللواء البحري جورج موراي George Murray قائد جزر الماريانا، وإلى مديري الميناءين في تينيان وغوام.

شعر مكڤاي بخيبة أمل فقد كان يريد أن يحصل رجاله على تدريب لتحديث خبراتهم ومعلوماتهم في غوام قبل التوجه إلى منطقة أكثر عرضة لهجوم الأعداء. ومع ذلك، بينما كان الطراد يرفع مرساته للانطلاق في الرحلة الليلية إلى غوام، كان مكڤاي واثقاً من أن القائد المحلي لأسطول المحيط الهادىء سيوافق على تغيير موقع التدريب إلى غوام لدى وصول الطراد في صباح 27 تموز / يوليو.